

المجلد: 06 / العدد: 02 / ديسمبر (2022)، ص. 324/317

النوستالجيا في الرواية العربية المعاصرة رواية "هنا ترقد الغاوية 1"
للروائي اللبناني: محمد إقبال حرب أنموذجاً

Nostalgia in the contemporary Arab novel novel "Here lies the seductive one"

by the Lebanese novelist: Muhammad IqbalHarb as a model

د. ميّادة أنور الصعيدي

melesaide@gmail.com

جامعة القرآن الكريم وتأسيس العلوم.

(السودان)

تاريخ النشر: 2022/06/02

تاريخ القبول: 2022/08/09

تاريخ الاستلام: 2022/07/07

ملخص:

لكلّ إنسان ذكريات سارة وأخرى مؤلمة تربطه بالماضي؛ فكثيراً ما يسترجعها بخياله، ويتمنى لو أنّها تعاد؛ كي يستمتع باللحظات الجميلة التي جمعتها بمن تربطه بهم علاقة حميمية، أو أن يتصرّف بشكل أفضل مما فعل في الأحداث المؤلمة واللحظات الصعبة التي مرّ بها سالفاً؛ وعليه فقد تبين أنّ الدافع الحقيقي وراء النوستالجيا هو تألم الشخصية وشعورها بالتوتر والغربة جزاء ماضٍ مفرح مغمم بالذكريات الحميمة. وحاضر سيء لا يُلبّي رغباته؛ لذا فهو ساخطٌ عليه، متبرّم منه. ومن هنا فإنّ الدراسة الحالية تهدف إلى التعرف على "النوستالجيا" ودوافعها، وتجلياتها في الرواية العربية المعاصرة، مع اتخاذ رواية "هنا ترقد الغاوية" للروائي اللبناني: محمد إقبال حرب أنموذجاً.

الكلمات المفتاحية: {النوستالجيا، رواية "هنا ترقد الغاوية"، الحنين، الصراع، الزمكان}

Abstract:

Everyone has pleasant and painful memories that connect him to the past. He often recalls it in his imagination, and wishes it could be returned. To enjoy the beautiful moments that he has gathered with the one with whom he has an intimate relationship, or to act better than he did in the painful events and difficult moments which he experienced before; Accordingly, it turned out that the real motive behind the nostalgia is the personal pain and feelings of tension and alienation, the reward of a happy past full of intimate memories. and a bad present that does not fulfill his desires; So he is indignant at him, dissatisfied with him. Hence, the current study aims to identify "nostalgia" and its motives, and its manifestations in the Arabic novel, by taking the novel "Here lies the seductiveness" of the Lebanese novelist: Muhammad IqbalHarb as a model.

Keywords: Nostalgia, the novel "Here lies the seductiveness", nostalgia, conflict, space-time .

تقديم:

اعتبرت النوستالجيا في بداية الأمر مرضاً نفسياً يصيب الإنسان؛ كونها ترافق الاضطرابات النفسية التي يشعر بها كالحزن والاكتئاب واختلال التوازن الذاتي؛ خاصة عندما يقوم باسترجاع الذكريات المأسوية، ويطلع على متعلقاتها كالرسائل وصور الأصدقاء. ومع تطوّرات العصر وما رافقها من افتتاح على العالم، وحاجة الإنسان للسفر،

واضطرابه للاعتراب؛ اتسع مفهوم النوستالجيا وأصبح يتجاوز الاضطرابات النفسية إلى أشكال تعبيرية واضحة في مجالات: الفكر والفلسفة والأدب.

ولقد عبّر الكثير من الروائيين المعاصرين عن النوستالجيا من خلال تصويرهم حالات: الفقد، والحرمان، والحنين والشوق التي تصيب شخصيات رواياتهم عند محاولة تأييد ذكرياتهم، واسترجاع رسائلهم المختبئة من أرشيف ماضيهم. كما قام الروائيون بتوظيف تقنيات سردية خاصة تتعلق بالشخصية النوستالجية. مثل: المونولوج الداخلي، والصراع مع الزمان والمكان، مع انتقاء الشخصيات التي تعمق الإحساس بالنوستالجيا: كالجدّة، والحكّاءة. واختيار الأمكنة التي تتعلق بمجميعة الذكريات: كبيت العائلة، والوطن الأصلي، وحرارة الحبيبة.

النوستالجيا (الاحتفاء بالماضي؛ للبقاء على قيد الطفولة والتقاء)

كلمة "نوستالجيا" أصلها يوناني تحمل معنى العودة إلى: "البيت، الوطن، مسقط الرأس الديار" بعد طول غياب، والألم الذي يسببه هذا الغياب. واعتبرت النوستالجيا لعدّة قرون حالةً طبيّةً يمكن أن تؤدّي إلى الموت في بعض الأحيان وتنتج عن الحنين الشديد إلى الماضي، ولقد رأى "سيغ蒙德 فرويد في دراسته The Uncanny أن الكلمة الألمانية الأقرب إلى النوستالجيا هي "Heimweh" وتحمل معنيين: الوطن والأم من ناحية، وحالة الغنيان الناتجة عن الغياب عن المنزل والتوّاقة له في نفس الوقت من ناحية أخرى. يرتبط المصطلح أيضًا بكلمة "Heimlich" أي "السري" و "الغريب" [Unheimlich, Uncanny]، والذي يستخدمه فرويد في الإشارة إلى آليات الكبت النفسيّة². تلك الآليات التي تحركها الحنين للماضي؛ وبذا يُمكن اعتبار النوستالجيا دافع نفسيّ لتعويض المفقود بعد الاصطدام بحقيقة أن المفقود غير قابل للاسترجاع.

لكلّ إنسان ذكريات سارة وأخرى مؤلمة تربطه بالماضي؛ فكثيرًا ما يسترجعها بخياله، ويتمتّى لو أنّها تعاد؛ كي يستمتع باللحظات الجميلة التي جمعته بمن تربطه به علاقة حميمة، أو أن يتصرّف بشكل أفضل مما فعل في الأحداث المؤلمة واللحظات الصعبة التي مرّ بها سالفًا. لذا فإنّ كثيرًا من شركات إنتاج الأفلام السينمائية، والإعلانات التلفزيونية، ومستخدمي السوشيال ميديا هذه الأيام يوظفون النوستالجيا للعب على الوتر الحساس؛ إذ يستخدمونها كأداة مؤثرة على ذهن المتابعين ومشاعرهم؛ مما يساهم في تسويق إعلاناتهم بشكلي فعال ومرجح في الوقت نفسه. ودليل ذلك هو إعلان شركة الاتصالات المصرية "فودافون" في رمضان عام 2021م؛ عندما ربطت خدماتها وما تقدّمه للشعب المصري بذكريات جميلة أثرت بها على مشاعر المتابعين وانفعالاتهم بشكلي قويّ ومُجديّ؛ فقد ظهرت في إعلانها الفتاة "شريهان" أيقونة الفوازير الرمضانية بعد غياب دام لأعوام عديدة. وعليه فإنّ العديد من الشركات الإعلانية قامت بإحياء الإنتاج الفني والإعلاني للأجيال السابقة من خلال توظيف شخصيات ومفردات وأحداث من الماضي وتقديمها بلمسة عصرية تعكس الحياة التي نعيشها اليوم³.

يلعب الحنين إلى الماضي دورًا كبيرًا في التأثير على عامة الناس، ليس فقط في وسائل الإعلام وإنّما في الأدب كذلك. ومن هنا فإنّ الرواية العربية المعاصرة قد وظّفت النوستالجيا لاستحضار استجابة عاطفية من المتلقّي تجاهها، وجذب انتباهه وتفاعله. لكن كيف يحدث الإحساس بالنوستالجيا لدى الروائيّ؟ وما هي دوافع توظيفها في الرواية العربية المعاصرة؟ وما هي تجلّياتها في رواية "هنا ترقد الغاوية" للروائيّ اللبنانيّ. محمد إقبال حرب؟ إنّ الروائيّ حينما يُستثار في حاضره (كأن يؤثر عليه موقف اجتماعي أو سياسي أو غير ذلك)؛ يلبّج إلى التوغّل في الماضي بفعل الذاكرة. وعلى الرغم من وجود بعض الذكريات المنسية أو التائبة في مستودع العقل الباطنيّ، إلّا أنّها سرعان ما تقفز لسطح حاضره؛ فتحرقه للكتابة والتعبير عن ذلك؛ فكان لا بدّ من البحث عن أشكالٍ جديدةٍ تتبلور فيها سرعة الزمن وتبدّل الحال، ويرصد من خلالها اضطرابات الشخصية الروائية التي تحاكي الشخصية الحقيقية، التي تفقد لكلّ معاني الوحدة والانسجام مع العصر الحاليّ.

إنّ الحنين إلى الماضي يرتبط بأحداث وأشخاص وذكريات عايشها الأفراد في الواقع، وقد ترتبط بأغنية أو إيقاع أو فيلم أو مكان أو موقف معين، وكلّها تؤثر على سلوك الإنسان عاطفيًا؛ كونها تسمح الغبار عن تلك الصور الهيمية القديمة، وتسترجع شريط الذكريات الجميلة أو المؤلمة له، وتعيد بناء الماضي بالكيفية التي ارتأها.

احتلت صور الماضي بنية السرد المعاصر بما توثقه من ذكرياتٍ تحمل في طياتها شوقاً لذيذاً وأماً عميقاً على ما سلف. ويبدو أن اندفاع الروائي لبث عاطفة الحنين إلى الماضي في روايته؛ إيماناً منه بمدى تأثيرها على الدائقة العامة للمتلقين وفعاليتهم. ومن هنا فإن النوستالجيا شعورٌ له وظيفة إيجابية؛ إذ يُحسن الحالة المزاجية للمتلقّي؛ لاتبائه للماضي بما فيه من أحداث، وشخصيات، وأغان، وأماكن؛ فالحالة المزاجية تتحسن حينما نكون في الأماكن التي نحب، ومع الأشخاص الذين تربطنا بهم ذكرياتٍ حميمة، وأحداث لا نملّ من استرجاعها في كل لقاءٍ يجتمعنا بهم. وعليه فإن الخبراء قد أكدوا أن النوستالجيا تعدّ آليةً دفاعيةً يستخدمها العقل لرفع المزاج وتحسين الحالة النفسية. خاصة عندما تزرخ بالملل والشعور بالوحدة، خاصة عند كبار السن. فعندما تشعر الشخصية أن حياتها قد فقدت قيمتها وتغيرت إلى الأسوأ، يستحضر عقلها ذكريات الماضي الطيبة بدفءها. وعليه فإن الذكريات تساهم بشكلٍ فعال في مواجهة التحديات الحالية. حيث إن النوستالجيا موردٌ نفسيٌّ يهبط فيه الناس لاستعادة حياتهم، وهو أحد الطرق الناجحة لصد الاكتئاب والشعور بالحزن والألم.⁴

ومن أهم تجليات النوستالجيا في رواية "هنا ترقد الغاوية":

أولاً: الشوق والحنين إلى الماضي

إنّ الحنين هو الشوق والتهيبة لكلّ عزيز على النفس قد بُعد عنها، وهو بذلك شعور داخليّ ينبج عن ألم يعانيه الإنسان نتيجة فقدته أشياء عزيزة عليه؛ لذلك فإنّ الإحساس بالفقد والغربة من المشاعر التي ترافق الشوق والحنين إلى الماضي. ولقد ظهرت هذه المشاعر في شخصيّة "آدم" بطل رواية "هنا ترقد الغاوية" نتيجة غياب تلك العلاقات الحميمة التي كان يجتمع بها في ظلّ أبويه. يقول: "ما كاد يربط خيوط الماضي ليصنع منها طائرة من حلم يطير بها إلى عهد مضى حتى ارتسمت عند الأفق الذي غادره.. إنها تمسك به طفلاً. بش لها وابتسم.. نظر إليها عبر الزمن. لكنها بدأت تكبر وتكبر... تشيخ وتهرم حتى بهتت نضارتها فيما تزداد عيناها بريقاً ولماعاً. ارتشف منها نظرات حانية، وخطف مشاعر بسمه خافته.. رقى قلبه. إنّ ذاكرة "آدم" تتجه نحو قارعة طفولته التي مضت دونما تيبّ بالأياب، بينما وجوه أحبته تخرج له مبهتمة كأنهم لم يموتوا. فرغم أنّه فقد أمه؛ إلا أنّ ملامحها تظهر له جليّة؛ لحنمه المزيد من الحب، وتضي عليه الكثير من الحنان الذي يفترقه.

ويلاحظ أنّ الروائي في المقطع السابق قد وظّف المونولوج الداخليّ الذي يعتمد على التذكير الطويل المباشر؛ ليكون هدفه الحقيقيّ استحضار تدفق غير منقطع من الأفكار التي تمرّ عبر كيان شخصياته⁶، وهنا يقوم بوصف الحالة التي تكون عليها الشخصية، ومن ثم يترك لها حريّة الاسترسال في تداعي الذكريات من خلال المونولوج الداخليّ؛ بما يدفع المتلقّي لأن يكتشف تركيزه في الصوت الوحيد الذي يستدعي كلّ الأصوات الماضية المتشبهة بالطفولة الغصّة، وبالتاريخ العائلي، وبالأحداث الحاسمة في حياته؛ وبدا فإنّ المونولوج الداخليّ هنا قد تميّز "بخاصية بنيوية تتمثل في الأهمية التي تكسبها وظيفة أحداث واقعة تعود للذاكرة إذ تؤدّي دور قادم يسمح لسيل من ذكريات ماضٍ أبعد بأن ينبعث في الدّهن"⁷.

وقد تلجأ شخصيات الرواية للعودة إلى الماضي، نتيجة استدعاء الذكريات المتعلقة بالطفولة. يقول: "ومضات من الماضين تسطع في كلّ مكان تبعث في طيات نسيانه حينئذ. صور الطفولة تبعث في حاضره، هو وصاهرين يلعبان.. يأكلان.. يضحكان ضحك براءة فأخذته نسمة من رافة؛ فقال مخاطباً نفسه: ..أختي وأحبها.."⁸. ومن هنا فإنّ التزوع المتأصل إلى عالم الطفولة هو الذي أتاح للمتلقّي شيئاً آخر وراء النص، كنهٍ يحمل معنىً خفياً موحياً، فهو الوجه الذي يتيح للوعي أن يستشف عالماً خفياً، وهو إضاءة للوجود المعتم، واندفاع صوب الأصل، والبراءة والبساطة. إلى جانب الكشف عن حجم اليباس في العلاقات الاجتماعية، والشظف العاطفي، والواقع المأساوي، والشعور بالوحشة والاعتراب التقسي الذي يشبع في عصرنا الحالي. ومن هنا فإنّ الرجوع إلى الماضي يتطلب بالضرورة استدعاء شخصياته وأحداثه وأمكنته. وعليه فإنّ حديث الشخصية السابق يومئذ إلى عاطفة الحنين التي تسيطر عليه؛ إذ تعصف بعالم "الذات الداخلي الذي تنهل منه عملية الإبداع رؤاها، وتشكل من خلاله طرائق التعبير فيها، تشكيلاً لا منطقيّاً، غامضاً وثريراً بالدلالات والإيحاءات الوجدانية"⁹. فكلّ إنسان مغرب خلفه حكايات منها ما يمكن أن تقال ومنها ما أخفاها الروائي؛ بغية زيادة التفاعل الوجداني بين النص وشخصياته من جهة، وبين النص ومتلقّيه من جهةٍ أخرى.

وعند الحديث عن الحنين لا يمكن الفصل بينه وبين الغربة، فكلاهما متلازمان تلازم الروح للجسد، فالغربة هي المسبب الرئيس للحنين، والحنين ظاهرة إنسانية وشعور أصيل في النفس البشرية؛ إذ تحنّ لكل شيء ترك فيها إحساساً جميلاً، حيث يعدّ الحنين من الدوافع الفطرية عند الإنسان، فهو مرتبط بالشعور الإنساني ووجوده. فهناك جدلية بين اللذة والألم، كما بين الغربة والحنين، أو الحاضر والماضي، فأحد الحنين متضمن في الآخر. فالحنين يستدعي الغربة، والحاضر يستدعي الماضي، واللذة تستدعي الألم¹⁰.

ثانياً: الشعور بالاعتراب

يعدّ الشعور بالاعتراب من أفسى فترات الحياة على المرء. وهو حالة نفسية تصوّر مدى انعدام المغزى في واقع الحياة والإحباط، والشعور بالتذمر والعداء والعزلة¹¹؛ لذا فإنّ الإنسان المغترب: هو الذي يشعر بعدم فاعليته وأهميته في الحياة المحيطة، وقد يكون ذلك نتيجة لتلك الظروف المادية والأسباب الشخصية والعامة المؤدية للغربة والمعاناة والانفصال عن المجتمع¹². يقول: "كان السور عبارة عن سلسلة من الصخور المترابطة.. كانت مساهمات تنوءات حفرتها دموع ذكريات لبشر سكنوا إليها بأحزانهم.. بشوقهم.. مهاجرون.. هربوا من حيث ضاقت بهم السبل في عالم شرقي هرم إلى غرب جذاب، مغر بقلبه، قاس بقلبه.. مع كل تهيدة.. لتحفظ آهات المشتاق.. مع استرسال مشاعر حنينه واندفاع عواطفه الفياضة نحو شغاف قلب.. يخفق بالشوق.. بينما تنتشر ذكريات عهد قديم في خلاياه.. الرغبات سخية والدموع أسخى. دموع شوقه وحرقة أساه تنكأ من أعماقه صدى حياة غربت، وحنين عاشق توارى.. تبعث حياة في ماض لم ينس بعد. تصارعت رغبته في النسيان مع حنينه الأزلي بين جذب وارتماء تراه على وجنتيه بسمه يوشعها الحزن"¹³. لقد عزز الروائي إحساس البطل بالاعتراب والقهر بألفاظ موحية وتراكيب دالة على حجم الأسى والحزن الذي يكظمه المغترب عنوةً كما في: "دموع، بأحزانهم، هربوا، ضاقت، قاس، تهيدة، آهات، حنينه، حرقة أساه، حنين توارى..". ولقد تسلّل ذلك الشعور للقارئ من خلال البنية الفنية الداعمة له، كما في قوله: "تصارعت رغبته، يوحها الحزن..". ويبدو أنّ توظيف ألفاظ الجمع أكثر من ألفاظ الإفراد يعطي من إيقاع الحسرة، ويعمق من الإحساس بالاعتراب. ومن هذه الألفاظ: "الصخور، تنوءات، دموع، ذكريات، بأحزانهم، مهاجرون، آهات، مشاعر، عواطفه".

إنّ غربة البطل قد شكلت حالةً من التيه في عمّة الذات، فشعر بالحنين إلى الماضي بما فيه. والحنين هو اضطراب الذات لحظة وعي ألم الغربة. وقد يشكل شدة الحنين اغتراباً عن المكان؛ مما يجعل الشخصية لا تتقبّله، وإن كان تعاضياً قسرياً؛ مما دفع الروائي لأن يبدع عبارات تصدح شوقاً وحنيناً للماضي، وتصور الألم المصاحب لها تصويراً فنياً يعمق المعنى. وقد تلجأ الشخصية المغتربة للعزلة الاجتماعية كنتيجة لانعدام التكيف الاجتماعي، أو لصالة الدفء العاطفي، وعدم الاندماج النفسي والفكري مع من حوله؛ ومن هنا فقد ارتبط حنين "آدم" بمسببات الغربة، فالبعد عن الأسرة والغربة عن الوطن، جعلت رواية "هنا ترقد الغاوية" تزخر بالذكريات الجميلة والموجعة في آنٍ واحد.

ثالثاً: الشعور بالتوتر والقلق

إنّ الشخصية النوستالجية المغتربة دائماً ما تعاني من توتر نفسي، وقلق مؤرق، وعدم القدرة على الانسجام مع من حولها، بالإضافة إلى الإحساس بالضيق والظلم، وفقدان الحرية، وعدم القدرة على المواجهة والتحدّي والانسجام النفسي حتى مع الذات. ومن هنا كان لا بدّ أن يغزو القلق كمرض من أمراض العصر ذوات الشخص، في خضم كل هذه المشاعر القاهرة المرهقة. ويتأقّق الشعور بالقلق من المستقبل المبهم، والخوف من مآلات الأحداث، وإقامة المقارنات الدائمة بين بساطة الماضي وصفائه وبين تعقّد الحاضر وإبهامه، علاوة على الشعور بالعجز اتجاه مجريات العصر وأحداثه. كلّ ذلك يبيّن إلى حالة عدم الانسجام والانتماء، والكبت، والعجز. ويرجع فرويد هذه المشاعر إلى فقد الحبّ والإحساس بالأمان، يقول: "فنحن لا نحمي أنفسنا من الألم أسوأ حماية ممكنة مثلما نحميها عندما نحب، ولا نغاني من تعاسة مطلقة لا شفاء لها مثلما نغاني حين نفقد الشخص الحبيب أو نفقد حبه"¹⁴. يقول: "تتحرك صابرين ولم تجفل بل سرحت في وجه آدم تنقبه، تزيل أقنعة السنين واحداً تلو الآخر.. تطايرت الأقنعة رويداً رويداً، وتناثرت شعيرات ذقنه وشاربه في الهواء. ازداد نضارة، برزت علامات كانت منزوية تحت غبار السنين.. بدأت تحمر خجلاً كما دائماً، توردت شفثاها.. وضجت عينها ببريق عشق كان قد رحل إلى صميم أعماقها. أحسّت ببرودة تنهش خلاياها بينما يشتمل قلبها. من هو هذا الملك الذي يحضّر راحلاً؟"¹⁵. يتجلى الصراع مع الزمن في البنية العميقة للمقطع السابق؛ لذلك فقد

برز التضارب النفسي الذي تعيشه الشخصية جزاء إحساسها بالقلق الدائم الذي يسري في متن السرد، واشتدت وتيرته مع إيقاع الزمن، وتفاوت الأحداث ما بين ماضٍ مليء بالذكريات، وحاضرٍ معاش، ومستقبلٍ مبهم، ويبدو أن هاجس التوتر من الزمن سمة بارزة في إبداع أدباء العصر، بل ويقتى عالقاً في أذهانهم طيلة عملية الإبداع، ومرد ذلك هو التطور السريع الذي تشهده الفترة؛ لهذا كله فإن الصراع مع الزمن له دورٌ فعالٌ ومباشرٌ في سير الأحداث، وتصوير الشخصية وعواملها؛ ورصد اضطراباتها وفقدائها لكل معاني الوحدة والانسجام.

وعلى هذا الأساس فإن النوستالجيا تولد الشعور بالاستياء المصحوب بالأسف والحزن على أحوال تغيرت في زمن مضى، وقد تجلّى هذا الشعور بقوله: "تزامت أفكار الياس في عالم الرجل.. رمى بكاهله على عصاه التي تتكئ على رمال الشاطئ المبتلة.. وذرف دموعاً سخياً فوق صدور الذكرى فأوجد حفرة ذكريات جديدة. نظر إليها، ركلها وقال: أنا لا أريد ذكريات.. كل يوم أدفن بقايا ذكرياتي وأعود لتأبينها في اليوم التالي مصلياً عليها صلاة الغائب. ها أنا قد أصبحت حانوتياً للملكاتي بل لبعض مني. ألم أدفن شباني وصباي وأشعاري كما دفنت ضحكي ولعبي في قبو شهيد رحيل أختي؟"¹⁶ إن هذا الاضطراب والتردّد الذي شعر به "آدم" ما بين الحنين إلى الماضي، والقلق واليأس من استدعاء الذكريات واسترجاعها مردّه المرحلة العمرية له؛ فأدم يعيش مرحلة شيخوخة؛ لذلك فهو يعود غالباً_ خاوي اليدين بعد رحلة تجوب الماضي الميت. يقول: "في سردها الآن خبايا وحكايات. حكايات بلا وجل بلا خوف من عقاب، مات سجّانها فارتضى حبل قيدها، بينما يعوقها قيد العجز، عجز الشيخوخة يرافق ظلام البصر والخوف من المجهول"¹⁷. لذلك فقد جاءت شخصية "آدم" منفعة لا فاعلة، فقد دخلت أفعالها حيز اللا فعل، ومرد ذلك هي حجمية الحياة المعاشة، وعدم تلبية الزمان والمكان لمطلّبات الشخصية وطموحاتها؛ لذلك كثيراً ما نجد أن الحلم وهاجس التذكّر قد رافق هذه الشخصية، وهذا يؤكّد على عدم انسجامها، وتذمرها، وارتدادها المستمر إلى الماضي، والتطلّع لمستقبل أفضل. وقد يدلّ على خوفها، وعدم قدرتها على اتخاذ القرار أو المواجهة.

تلجأ شخصيات رواية "هنا ترقد الغاوية" إلى الاستسلام حينما تشعر برتابة الحياة ومرارتها، وقد تحاول أن تنفتح على الحياة، لكنّها غالباً ما تشيخ قبالة ذكريات الماضي، وتتوقّع مرّة أخرى في المسار الذي رُسم لها، وتبقى رهينة صراعها النفسي بين ماضٍ طامخ بالذكريات، ومستقبلٍ مبهم. يقول: "غاصت في أحلام لا تذكّرها. كانت أشباح الطفولة تداعب طفلتها الرائكة في أعماقها، تراقصها بين صور أب وأم تفقدتها. ناداها الواقع فأبّت الإذعان لطلباته، ألح عليها ففتحت عينها، ثمّ تراجعت إلى أحضان الدثار"¹⁸. وهنا تجلّت مجموعة من الشائيات الضدّية التي تكشف عن استياء الشخصية من الحاضر، وإن كانت إحدى طرفي الشائيات حاضرٌ في ذهن القارئ لوجود الآخر في السياق. من هنا فقد وقعت الشخصية في المقطع السابق بين: "الماضي والحاضر، الشيخوخة والطفولة، الحضور والغياب، الخيال والواقع".

رابعاً: الصراع الزمكاني والنفسي في الشخصية النوستالجية.

إنّ حديث الشخصية مع روحها يستبطن مفارقة تكمن في صراعها مع الزمان والمكان، ويوجب عن سؤال الخاسرين لكل أشكال الحب، والسكينة، والألفة في الزمان والمكان الحاضرين. وعليه فإنّ المونولوج الداخلي للشخصية قد كشف عن بقعةٍ مادية ذات جاذبيّةٍ أثرية؛ فالشخصية_ غالباً_ ما تستدعي بيت العائلة المهجور منذ زمن؛ ثمّ دفع الروائي إلى أن يجعله منهلًا للذكريات، وامتداداً لا نهائياً للتداعي؛ بحيث يفيض بالمشاعر الحميمية، وهو ما يضيف على النفوس جالاً تألفه وتأنس به، لذا فمن الضروري أن تشعر الشخصية بالحميمية المغلقة بالأسى. وفي ذلك تشكيلٌ جماليٌّ ومفارقةٌ لذيذة في توظيف الروائي لتقنيات عدّة: كالمونولوج الداخلي، والصراع النفسي والزمكاني بين موقع (الأنا) الحاضر، وموقعها الماضي (ظلمة)، بين ما كانت وما ستكون، والحالة المتأرجحة بينهما، إنّها مرحلة معقّدة من عدم الانسجام مع النفس. فقد تجاوز الروائي من خلال هذه التقنيات المقاييس المعهودة إلى التعبير الأصدق عن حقيقة الشخصية النفسية وما يتعلّق روحها من الآم. فالذكريات "كانت تتور بين الفينة والأخرى عندما تلحظ فيه وهناً فتشبّت أطرافها في حائط الظلم عليها تحدث خدشاً في جدار سجّانها العتيق"²⁰. فكثيراً ما تنهض الذكريات من مكانها؛ تقاوم حصارها، وتطوف في خيال الشخصية؛ فيرى نفسه يتلمس جدران المكان الذي تربّى فيه؛ وفي دمه حين جارف يستجدي زمناً عابقاً بالحب أن يعود بمعيتة تفاصيله ومكوناته. يقول: "كراسة قديمة أحفظ فيها بعض الذكريات التي عصفت بي على مرّ السنين حباً وألماً. سكنت قليلاً ثمّ تابعت باندھاش: هل قلت على مرّ السنين؟ يبدو أنّي عجوز.. يا الله كيف يمّر العمر.. وما زلت أنتظر"²¹.

حينما تبدأ الشخصية بالحوار مع ذاتها تنطلق حركة الزمن التفسيري في اتجاهات مختلفة، ويتسع زمن الخطاب؛ فتتجلى مهارة الروائي في بناء المونولوج وتقديم المحتوى التفسيري للشخصية. فالزمن مع الإنسان يتصف بالذاتية والموضوعية، وبأن من ناحية وهادم من ناحية أخرى، ومن خلاله تنمو حياة الشخصية وترتقي، وقد تنحدر وتندهور، إنه يتغير تبعاً للحالة النفسية للشخصية، فرب ساعة من زمان تمر بشخص كأنها دقائق، والعكس. يقول: "خيم سكون على تلك الأرواح التي خلدت إلى التوم في أجسام قلقة تحت سماء متقلبة الأجواء. فليس غريباً في أن تشهد عدة فصول في يوم واحد في بوسطن وضواحيها، لكن الغريب أن ترى مراحل الحياة تتقاذفك خبط عشواء في خضم لا تجد منه مخرجاً".²² فالزمن يقصر ويطول تبعاً لاختلاف الحالة النفسية التي أبطأت حركة الزمن بدوافع شعورية كالتعلق والخوف واليأس .

خامساً: النوستالجيا تستدعي الخيال

وظف الروائي الخيال في نسج الصورة؛ كونه يُعنيها "بذكرات الطفولة التي تضيئ نكهة خاصة، تتميز بالخصوبة والدهشة، كما يغنيها بالتجارب الجماعية السابقة".²⁴ وما الخيال سوى صخرة اللا شعور ضمن الصورة الفنية، وهو وراء توالد الصور وتفزعها وتنوعها وغناها. يقول: "صدمته الذكرى، أزقته التفاصيل وأخذت قواه تخذله فأحس بدوار البحر يرافق دوامة الحياة، تراجع قليلاً عن صخرة الأحران كي يجلس على صخرة أصغر. تمايل جسمه.. فهبت عاصه للمساندة لكنها خاتته، ترتج، تمايل حتى آل للشقوط".²⁵ لقد وظف الروائي في هذا المقطع الاستعارة المكنية: "الذاكرة تصدم، والتفاصيل تؤزق، وقواه تخذله، وللحياة دوامة، وللأحران صخرة، والعصا تخون"؛ مما يوحي بعدم قدرة "آدم" على مجابهة تلك الذكريات، وعلى شدة وقوعها على روحه؛ إذ "تصدمه، تؤزقه، جعلته يرتج، يتمايل، يسقط"؛ مما يمنح الصورة فاعلية وحركة؛ كونها مزينة بالأفعال التي تشبه باستمرار استرجاع الذكريات وديمومة تأثيرها عليه.

وهنا فقد خلق الروائي حركة نفسية مونولوجية، تعكس إحساساً دلاليًا عميقاً مثيراً للدهشة، بتوظيف الصورة المجسمة أو المشخصة للأشياء؛ مما يساهم في شحن حكايته تشكيلات حسية تنبض بالحركة، ومن هنا كان لا بد أن تكون علاقة بين الخيال المتمثل بالاستعارة وحركة الصورة، ذلك لأن التصوير "لون وشكل، ومعنى وحركة، وقد تكون الحركة أصعب ما فيه لأن تمثيلها يتوقف على ملكة الناظر، ولا يتوقف على ما يراه بعينه ويدركه بظاهر حسه".²⁶ وما يؤكد ذلك حركة الأفعال في قوله: "لقد توقف الإرسال وسقطت الصور، لكن الصوت عاد مجننه إلى عمق النسيان يستشف أحياناً. ياه صوت بلا صورة. بل الصوت يصنع الصورة بدأ يرى بأذنيه.. ترسم في أفقه خطوطاً جديده من لوحة الماضي. الألوان تزداد عمقاً والصوت يردد كلاماً".²⁷

إن المتأمل للمقطع السابق يوقن أن الروائي قد جنح إلى تقنية: التراسل الحسي المقممة بالحركة؛ قصدًا مفاجأة المتلقي وإبعاده عن توقع الصورة التقليدية المألوفة، الأمر الذي يغني الصورة ويوسع من آفاقها الجمالية والتأثيرية. ويبدو أن الأثر التفسيري للبطل طاع من خلال ورود العديد من الأمثلة على الاستعارات المنتالية: فالصور تسقط، والصوت يعود ويستشف ويصنع، والذكرى ترسم، والألوان تزداد". بالإضافة إلى توظيف التراسل الحسي كما في: "يرى بأذنيه".
مما سبق تبين أن:

لقد تم التعرف في الدراسة الحالية على مفهوم "النوستالجيا" ودوافعها، وتجلياتها في الرواية العربية المعاصرة، مع اتخاذ رواية "هنا ترقد الغاوية" للروائي اللبناني: محمد إقبال حرب أ نموذجاً. وتوصلت الدراسة إلى عدة نتائج أهمها:

- إن الدافع الحقيقي وراء النوستالجيا هو تألم الشخصية وشعورها بالتوتر والغربة جراء ماضٍ مفرح مغمم بالذكريات الحميمة. وحاضر سيء لا يُلتي رغبته؛ لذا فهو ساخط عليه، متبرم منه.

- إن النوستالجيا حالة شعورية تستبطن مشاعر: الشوق والحنين للماضي وتفصيله، والاعتزاز التفسيري والشعور بالتوتر والقلق، علاوة على تجلي الصراع مع الزمان والمكان.

- لقد تجلّت النوستالجيا في رواية "هنا ترقد الغاوية" في غربة البطل وحنينه لماضٍ قريب من روحه؛ وتبين من خلال تحليل مواضع معينة في الرواية أن غربة بطلها لم تكن عادية؛ فهي كالريح العاتية، فما إن يوقد ناموس الذكريات الجميلة

النوستالجيا في الرواية العربية المعاصرة رواية "هنا ترقد الغاوية" للروائي اللبناني: محمد إقبال حرب أمودجا

في وطنه وبين أحبابه ظلًا منه أنه يتدققًا بها قلبه، تهبّ جنوبها، مخلفةً وراءها أرواحًا كأخشب المستدّة، يفوح منها رائحة دخان الحنين، والشوق، والتوايح، والألم المرير، بعدما سطا بها منشار البُعد والغربة.

- رواية "هنا ترقد الغاوية" تتجّ بالعدد من الموضوعات الاجتماعية والتفسيّة؛ ورغم ذلك إلا أنّ الباحثة ارتأت أن تستفرد بموضوع "النوستالجيا" كموضوع نفسيّ بالدرجة الأولى، ويمكن ربطه بتقنيات السرد التي وظفها الروائي: كالنولوج التآخري، والصراع، والزمكان. بالإضافة إلى الوقوف على تجلياتها التفسيّة في الرواية: كالأحساس بالشوق والحنين، والاعتراق وغيره.

- لا زالت النوستالجيا كموضوع نفسيّ دقيق بحاجةٍ ملحةٍ للبحث والدراسة والتحليل في الأدب بأنواعه؛ لذلك توصي الباحثة بضرورة الاهتمام به، والوقوف على علاقات النوستالجيا بالمتغيرات التفسيّة والاجتماعيّة للشخصيّة الروائيّة، وربطها بظواهر الصراع وجدليّاته القائمة، والتعامل معها بمنطق خاصّ يساعد في التعرف أكثر على أبعادها.

الإحالات

1. حرب، محمد إقبال: رواية "هنا ترقد الغاوية"، الدار العربيّة للعلوم والنشر - بيروت، 2015م، ط1.
2. حمية، حرمون: الذاكرة الجماعية في أحضان النوستالجيا، مجلة رحلة - لبنان، 10ع، نيسان/ 2020م، ص10.
3. Nostalgia using in advertising campaigns: GhadaMouhmodEbrahimOuf, Architecture and Arts Magazine, Volume 6, Issue 25, January 2021, from p432_ 448, p436.
4. Nostalgia using in advertising campaigns: GhadaMouhmodEbrahimOuf, p437
5. رواية "هنا ترقد الغاوية"، ص7.
6. ينظر: مانفريد، يان: علم السرد "مدخل إلى نظرية السرد"، تر. أماني أبو رحمة، دار نينوى - سوريا، 2011م، ط1، ص151.
7. القاضي، محمد، وآخرون: معجم السرديات، دار محمد علي - تونس، مكتبة الأدب العربي، 2010م، ط1، ص435_ 436.
8. رواية "هنا ترقد الغاوية"، ص37.
9. عفاق، قادة: دلالة المدينة في الخطاب الشعري المعاصر، منشورات اتحاد الكتاب - دمشق، 2001م، ص299.
10. ينظر: الخليلي، محمّد: الغربة والحنين في الشعر الأندلسي، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، 2007م، ص15.
11. ينظر: الطربولي، محمّد: المكان في الشعر الأندلسي، دار الرضوان - عمان، ط1، ص33.
12. ينظر: جاسم، عزيز: الاعتراق في حياة وشعر الشريف الرضي، دار الأندلس - بيروت، 1986م، ط1، ص11.
13. رواية "هنا ترقد الغاوية"، ص5_6.
14. فرويد، سيغموند: قلق في الحضارة، تر.. جورج طرايشي، دار الطليعة - بيروت، 1996م، ص31.
15. رواية "هنا ترقد الغاوية"، ص223.
16. رواية "هنا ترقد الغاوية"، ص16.
17. رواية "هنا ترقد الغاوية"، ص8.
18. رواية "هنا ترقد الغاوية"، ص178.
19. ينظر: الجبر، خالد عبد الرؤوف، غواية شيدوزي... دار جرير - عمان، ط1، 2009م، ص88.
20. رواية "هنا ترقد الغاوية"، ص9.
21. رواية "هنا ترقد الغاوية"، ص180.
22. رواية "هنا ترقد الغاوية"، ص32.
23. ينظر: حسام الدين، كرم: الزمان الدلالي، دار غريب للنشر والتوزيع - القاهرة، 2002م، ط2، ص49_50.
24. عبيد، كلود: جاليتة الصورة، مجد المؤسسة الجامعية - بيروت، 2010م، ط1، ص99.
25. رواية "هنا ترقد الغاوية"، ص11.
26. العقاد، عباس محمود: ابن الرومي حياته من شعره، دار الكتاب العربي - بيروت، 1967م، ط6، ص309.
27. رواية "هنا ترقد الغاوية"، ص8.

قائمة المراجع:

1. جاسم، عزيز: الاعتراق في حياة وشعر الشريف الرضي، دار الأندلس - بيروت، 1986م، ط1.
2. الجبر، خالد عبد الرؤوف، غواية شيدوزي... دار جرير - عمان، ط1، 2009م.
3. حسام الدين، كرم: الزمان الدلالي، دار غريب للنشر والتوزيع - القاهرة، 2002م، ط2.
4. حمية، حرمون: الذاكرة الجماعية في أحضان النوستالجيا، مجلة رحلة - لبنان، 10ع، نيسان/ 2020م.

5. الخليلي، مها: الغربة والحنين في الشعر الأندلسي، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، 2007م،
 6. الطربولي، محمد: المكان في الشعر الأندلسي، دار الرضوان _ عمان، 2012م، ط1.
 7. عبيد، كلود: جبالتيّة الصورة، مجد المؤسسة الجامعية _ بيروت، 2010م، ط1.
 8. عفاق، قاده: دلالة المدينة في الخطاب الشعري المعاصر، منشورات اتحاد الكتاب _ دمشق، 2001م.
 9. العقاد، عباس محمود: ابن الرومي حياته من شعره، دار الكتاب العربي - بيروت، 1967م، ط6.
 10. فرويد، سيغموند: قلق في الحضارة، تز. جورج طرابيشي، دار الطليعة _ بيروت، 1996م.
 11. القاضي، محمد، وآخرون: معجم السرديات، دار محمد علي للنشر، تونس، مكتبة الأدب العربي، 2010م، ط1.
 12. مانفريد، يان: علم السرد "مدخل إلى نظرية السرد"، تز. أماني أبو رحمة، دار نينوى للنشر _ سوريا، 2011م، ط1.
 13. حرب، محمد إقبال: رواية "هنا ترقد الغاوية"، النار العربية للعلوم والنشر _ بيروت، 2015م، ط1.
- Nostalgia using in advertising campaigns: GhadaMouhmodEbrahimOuf, Architecture and Arts Magazine,
Volume 6, Issue 25, January 2021, from p432_ 44